

لفظ "الصمت" في الخطاب القرآني بين التصريح والتلبيح (*)

"Silence" in the Qur'anic discourse between permission and implication

د. آية الله عاشوري

جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، (الجزائر)

البريد: ayetallah2010@hotmail.fr

ملخص : إذا فات المرء أن يزن كلمته التي ينطق بها؛ ولم يلجم فيه بلجام الحق والروية؛ فكم يترتب على ذلك من أخطاء وجراح ومشاكل؛ لذا وجب على كل مكلف أن يحفظ لسانه؛ ويزن كلامه؛ فلا يتكلم إلا إذا دعت الحاجة واقتضى المقام ذلك؛ وإلا فالصمت أولى؛ ولزوم الصمت إنما يكون عن هذر وفضول وما شابههما؛ وإلا فهو صمت مذموم؛ وجماع الأمر ألا ينطق المرء بباطل؛ ولا يسكت عن حق؛ فلا يتكلم إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة؛ ولا يصمت إلا عما يخشى غائلته في عاجله وآجله.

وقد ذكر الصمت في كتاب الله العزيز إما تصريحاً بلفظه أو مرادفاته، أو ما يفهم من سياق المعنى، مستلزماً مواقف وصوراً يذم فيها حيناً، ويمدح حيناً آخر.
كلمات مفتاحية : القرآن الكريم، الخطاب، اللسان، الصمت.

Abstract: If the speaker misses what he says, and he does not pay attention to accuracy and certainty, this may result in a lot of errors and problems. Therefore, each speaker must keep silent when, necessary and weigh his words. In other words, he speaks only if and when the need arises, otherwise, it is better to keep silent. Furthermore, the need for silence is a way to avoid empty discussions, curiosity or others. The principle is that someone should not speak in vacuum or remain silent on a truth, but should only speak about things that are useful for him in life and after resurrection.

Silence in the Qur'an is mentioned either directly by mentioning it or by one of its synonyms, or can be understood from the context. In some situations, silent is praised whereas in some others it is rejected.

Keywords : The Qur'an, Speech, Language, Silence.

1. مقدمة:

من نعم الله تعالى على عباده أن جعل لهم لسانا يفصحون به عن دواخلهم، ويتواصلون به، ولحكمته تعالى أن جعل من آياته اختلاف الألسن، لنجد الناس في تفاوت بين الكلام والصمت في إعمالهم لنعمة اللسان، فما بين متكلم يتجرى الصواب، وآخر يهرف بما يعرف ولا يعرف، وسالك سبيل الصمت ابتغاء السلامة وهو في ذاك بين ممدوح الفعل أو مذمومه بحسب مواطن الصمت وضروريات المقام ومتطلبات الحال.

وقد ورد لفظ "الصمت" في القرآن الكريم مصرحاً بلفظه وملحاً له تارة، وبمعناه تارة أخرى.

2. تعريف الصمت/السكوت:

1.2 لغة:

ورد في لسان العرب، مادة (صمت): (صَمَتَ يَصْمِتُ صَمْتًا وَصُمْتُ وَصُمْتُ وَصُمْتُ وَأَصْمَتَ وَأَصْمَتَ: أَطَالَ السُّكُوتَ، وَرَجُلٌ صَمِيْتُ أَيْ سَكَيْتُ، وَالاسْمُ مِنْ صَمْتٍ: الصُّمْتَةُ. اللَّيْثُ: الصَّمْتُ السُّكُوتُ، وَقَدْ أَحَذَهُ الصَّمَاتُ، وَيُقَالُ الرَّجُلُ إِذَا اعْتَقَلَ لِسَانَهُ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ: أَصْمَتَ فَهُوَ مُصْمِتٌ⁽¹⁾.
أما في القاموس المحيط؛ فصل الشين والصاد باب التاء: (الصَّمْتُ): (الصَّمْتُ وَالصُّمُوتُ وَالصَّمَاتُ السُّكُوتُ كَالِإِصْمَاتِ وَالتَّصْمِيَتِ، وَرَمَاهُ بِصَمَاتِهِ أَيْ بِمَا صَمِتَ بِهِ وَأَصْمَتَهُ وَصَمَّتَهُ أَسَكَّتَهُ... وَالصَّمِيْتُ السَّكَيْتُ (زنة ومعنى)⁽²⁾).

أما فيما يتعلق بلفظ "السكوت" فنجد في لسان العرب ما معناه: (سكت: السَّكْتُ وَالسُّكُوتُ: خِلَافُ النُّطْقِ؛ وَقَدْ سَكَتَ يَسْكُتُ سَكًّا وَسَكَتًا وَسُكُوتًا، وَأَسَكَتَ. اللَّيْثُ: يُقَالُ سَكَتَ الصَّائِتُ يَسْكُتُ سُكُوتًا إِذَا صَمَتَ؛ وَالاسْمُ مِنْ سَكَتٍ: السَّكْتَةُ وَالسُّكُوتَةُ؛ عَنِ اللِّحْيَانِيِّ. وَيُقَالُ: تَكَلَّمَ الرَّجُلُ ثُمَّ سَكَتَ، بِغَيْرِ أَلْفٍ، فَإِذَا انْقَطَعَ كَلَامُهُ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ، قِيلَ: أَسَكَتَ... ابن سَيِّدِهِ: رَمَاهُ بِصَمَاتِهِ وَسَكَتَهُ أَيْ بِمَا صَمَتَ مِنْهُ وَسَكَتَ... وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: "وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ؛ قَالَ الرَّجَاجُ: مَعْنَاهُ وَلَمَّا سَكَنَ؛ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَلَمَّا سَكَتَ مُوسَى عَنِ الْغَضَبِ، عَلَى الْقَلْبِ، كَمَا قَالُوا: أَدْخَلْتُ الْقَلَنْسُوتَ فِي رَأْسِي؛ وَالْمَعْنَى أَدْخَلْتُ رَأْسِي فِي الْقَلَنْسُوتِ. قَالَ: وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ الَّذِي مَعْنَاهُ سَكَنَ، هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ. قَالَ: وَيُقَالُ سَكَتَ الرَّجُلُ يَسْكُتُ سَكًّا إِذَا سَكَنَ؛ وَسَكَتَ يَسْكُتُ سُكُوتًا وَسَكًّا إِذَا قَطَعَ الْكَلَامَ⁽³⁾).

2.2 اصطلاحا:

يقول محمد داود: (يعد الصمت طريقا إلى الصحة النفسية، والكمال الأخلاقي والإنساني... والصمت قدرة، والقدرة من الحكمة... والصمت هو مخالفة للنفس التي تتطلب شهوة الكلام، فهو نجاة من الهوى، وفوائده عديدة... فالصمت آية من آيات الله، وحكمة من حكمه... وهو نوع من الرياضات الكبرى لأنه مخالفة للنفس، ورعاية لها من الوقوع في براثن الشيطان، كما أنه ترويض لجنوحها وتهذيب لأخلاقها)⁽⁴⁾.

والصمت إما أن يكون باللسان أو بالقلب، فالأول يتجلى في انقطاع الكلام بحبس اللسان، والثاني مضمّر ينبئ عن حبس النفس عن حديثها، يقول محمد داود: (الصمت نوعان: صمت باللسان عن الحديث لغير الله، وصمت بالقلب عن كل خاطر يخطر له في النفس، ويمكن تقسيم الصمت إلى قسمين: صمت بالظاهر، وصمت بالقلب والضمائر)⁽⁵⁾.

3.2 الفرق بين الصمت والسكوت:

الفرق بين الصمت والسكوت جوهرى دقيق حيث أن الصمت والسكوت كليهما امتناع عن الكلام، إلا أن الفيصل بينهما هو الفترة الزمنية التي يلزمها الإنسان حال انقطاعه عن الكلام مع قدرته عليه، فإن قصرت تلك الفترة الزمنية كان سكوتا، وإن طالت كان صمتا، أما باعتبار القدرة فالصمت لا يعبر عن أي مقصد، ولا تعتبر فيه القدرة على الكلام، بخلاف السكوت الذي يحوي تعبيرا عن مقصد، بمعنى أن الساكت باستطاعته التكلم في حين أنه آثر الامتناع، في حين أن الصامت حال دونه وتكلمه مانع.

قال أبو البقاء: (السكوت هو ترك التكلم مع القدرة عليه، بهذا القيد الأخير يفارق الصمت، فإن القدرة على التكلم غير معتبرة فيه. ومن ضم شفثيه أنا يكون ساكنا، ولا يكون صامتا إلا إذا طالت مدة الضم).

ومن هنا يظهر الفرق بين السكوت والصمت، حيث أن السكوت إمساك عن قول الحق والباطل، أما الصمت فهو إمساك عن قول الباطل دون الحق)⁽⁶⁾.

وقريب مما سبق قول ابن عابدين: (قوله "صمت" عدل عن السكوت للفرق بينهما، وذلك أن السكوت ضم الشفتين، فإن طال سمي صمتا)⁽⁷⁾.

3. لفظ "الصمت" في الخطاب القرآني:

1.3 من حيث اللفظ:

1.1.3 التصريح بلفظ "الصمت":

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193)﴾ (سورة الأعراف، الآيات: 190-193).

في هذه الآيات إنكار على المشركين دعوتهم غير الله من الأصنام وتلك الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، وكيف أنها لا تسمع دعاءهم ولا تستجيب لهم، لأنها حجارة صنعوها بأيديهم ثم عبدوها من دون الله السميع البصير.

أورد ابن كثير في تفسيره ما نصه: (يعني: أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهَا، وَسَوَاءٌ لَدَيْهَا مِنْ دَعَاهَا وَمَنْ دَحَاهَا، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: 42]) (8).

أما الطبري فيقول: (قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره في وصفه وعييه ما يشرك هؤلاء المشركون في عبادتهم ربهم إياه: ومن صفته أنكم، أيها الناس، إن تدعوهم إلى الطريق المستقيم، والأمر الصحيح السديد لا يتبعوكم، لأنها ليست تعقل شيئاً، فتترك من الطرق ما كان عن القصد منعداً جائراً، وترك ما كان مستقيماً سديداً. وإنما أراد الله جل ثناؤه بوصف آلهتهم بذلك من صفتها، تنبيههم على عظيم خطئهم، وقبح اختيارهم. يقول جل ثناؤه: فكيف يهديكم إلى الرشاد من إن دُعي إلى الرشاد وعرفه لم يعرفه، ولم يفهم رشاداً من ضلال، وكان سواءً دعاءً داعيه إلى الرشاد وسكوته، لأنه لا يفهم دعاءه، ولا يسمع صوته، ولا يعقل ما يقال له. يقول: فكيف يُعبد من كانت هذه صفته، أم كيف يُشكَلُ عظيمُ جهل من اتخذ ما هذه صفته إلهاً؟ وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده، الضار من يعصيه، الناصر وليه، الخالذ عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه. وقيل: (سواءً عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون)، فعطف بقوله: "صامتون"، وهو اسم على قوله: "أدعوتهم"، وهو فعل ماضٍ، ولم يقل: أم صمتم، كما قال الشاعر:

سَوَاءٌ عَلَيْكَ النَّفْرُ أَمْ بَتَّ لَيْلَةً
بِأَهْلِ الْقَبَابِ مِنْ نُمَيْرِ بْنِ عَامِرٍ

وقد ينشد: "أم أنت بأتت" (9).

أما الشعراوي فيقول: (وكانوا في الجاهلية حين يفزعهم أمر جسيم ينادونهم ويقولون: يا هبل، يا لات، يا عزي. وإن لم يصبهم أمر سكتوا عن نداء الأصنام؛ لذلك يقول لهم الله من خلال الوحي لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: 193]، أي إن دعوتكم لهم لا تفيد في أي أمر تماماً كصمتكم. ونلاحظ أن الأسلوب هنا مختلف ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ﴾ فلم يقل: "أدعوتوهم أم صمتتم؟" لأن الفعل يقتضي الحدوث، ولنا أن نعرف أنهم كانوا لا يفزعون إلى آلهتهم إلا عند الأحداث الجسام. أما بقية الوقت فقد كانوا لا يكلمونهم أبداً؛ لذلك جاءت "صامتون" لازمة، لأنها اسم، والاسم يقتضي الثبوت والاستمرار، أما الفعل فيقتضي الحدوث والتجدد. والحق هنا يبلغ المشركين: سواء عليكم أدعوتوهم أم لم تدعوا، فعدم الاستجابة متحقق فيهم وواقع منهم، وعدم النصر لأنفسهم ولغيرهم متحقق منهم⁽¹⁰⁾. وأما أبو بكر الجزائري فيقول: (أي لم تدعوهم فإنهم لا يتبعونكم ومن هذه حاله وهذا واقعه فهل يصح أن يعبد فتقرب له القرابين ويحلف به، ويعكف عنده، وينادي ويستغاث به؟؟ اللهم لا، ولكن المشركين لا يعقلون)⁽¹¹⁾.

2.1.3 التصريح بلفظ "السكوت":

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)﴾ (سورة الأعراف، الآية: 154) إن الغضب نار نتأجج فتبيح بها النفس، حينها يفقد الإنسان السيطرة على أقواله وأفعاله، بل على تصرفاته التي تصبح خبط عشواء، ولذلك وجب على كل إنسان عاقل أن يضبط تصرفاته حال الغضب، وفي الآية الكريمة تصوير لحال موسى عليه السلام وقد اشتد به الغضب حتى أنه ألقى الألواح وأمسك بلحية أخيه هارون عليه السلام، ولكنه تدارك وأخذ الألواح وقت سكوت الغضب عنه، وكان الغضب كان يحدثه بكلام أوقد انفعالاته تلك. يقول ابن كثير: (يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أَي: سَكَنَ (عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) أَي: غَضِبَهُ عَلَى قَوْمِهِ)⁽¹²⁾.

أما الطبري فقد قال في تفسيره: (قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾. ولما كَفَّ عنه وسكن)⁽¹³⁾.

وأما الشعراوي فيقول: (وهل للغضب سكوت؟ هل للغضب مشاعر حتى يسكت؟ نعم؛ لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً نزوعياً أمام من أذنب، فكأن الغضب يلح عليه، ويقول للغضب: اضرب، اشم، اقتل. كأن الغضب قد مُثِّلَ وصُورَ في صورة شخص له قدرة إصدار الأوامر، فشبهه الله الغضب بصورة إنسان يلح على موسى في أن يفعل كذا، ويفعل كذا، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنه.

أو هو كما قال إخواننا العلماء: من القلب في اللغة، أي أنه يقلب المسألة، اتكلاً على أن فطنة السامع سترد كل شيء إلى أصله؛ كما نسمع في اللغة: خرق الثوب المسمار، نفهم من هذا القول أن المسمار هو الذي قام بخرق الثوب؛ لأننا لن نتخيل أن الثوب يخرق مسماراً. ويسمى ذلك "القلب" أي أن يأتي بمسألة مقلوبة تفهمها فطنة السامع. أو أن المسمار مستقر في مكانه، والثوب هو الذي طرأ عليه فانخرق، فيكون سبب الخرق من الثوب، فكأن الفاعلية الحقيقية من الثوب: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضِبَ﴾.

أو تكون كلمة (سكت) كناية عن أن الغضب زال وانتهى. ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضِبَ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ﴾. وأول عمل قام به موسى ساعة أن كان غضبان أسفاً أنه ألقى الألواح، وأول ما ذهب الغضب عنه وزايله أخذ الألواح، وهذا أمر منطقي، فالغضب جعله يلقي الألواح، ويأخذ برأس أخيه، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره، وطلب من الله أن يغفر له، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب وكانت الألواح ملقاة فأخذها ثانية (14).

ويقول أبو بكر الجزائري: (ولما سكت عن موسى الغضب: زال غضبه وسكنت نفسه من القلق والاضطراب) (15).

إن سكوت الغضب بمعنى انقطاعه وزواله، ليعقبه السكون بعد الاضطراب والحركة، وذلك حال موسى عليه السلام حين سكت غضبه سكت أفعاله من رمي للألواح وأخذ بلحية أخيه هارون عليه السلام.

2.3 ذكر مرادفات "الصمت":

1.2.3 الصوم:

من معاني الصوم في كلام العرب الإمساك عن الكلام، يقول ابن منظور: (وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ قِيلَ: مَعْنَاهُ صَمْتًا، وَيُقَوِّيه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَنْ أَكَلِمَةَ الْيَوْمِ إِنْسِيًّا﴾) (16).

أما الفيروز آبادي فيقول: (والصوم: الصمت) (17).

قال تعالى: ﴿فَكُلِّي وَأَشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (26) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) ﴿ (سورة مريم، الآيات: 26-29)

لقد نذرت مريم لربها صوما عن الكلام، وذلك أمر من الله عز وجل لها بالألتجيب أحدا عن حالها وحال مولودها عيسى عليه السلام، بل أوكل الله جواب القوم لمن كان في المهدي صبيها، وهذا حتى تقرر عينها ويكون دليلا على عفيتها وطهارتها، ومنه فصمتها لحكمة وليس عن عي، وتلك مشيئة الله تعالى وقدرته أن كفاها تطاول السنة الناس عنها بإسكاتها وإنطاق وليدها.

ورد في تفسير ابن كثير ما نصه: (وقوله: ﴿فَأَمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: مهما رأيت من أحد، ﴿فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك. لَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْقَوْلُ اللَّفْظِيُّ، لِثَلَاثِ بِنَائِي: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

قال أنس بن مالك في قوله: ﴿إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتا وكذا قال ابن عباس، والضحاك. وفي رواية عن أنس: "صوما وصمتا"، وكذا قال قتادة وغيرهما. والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدي، وقاتدة، وعبد الرحمن بن زيد (18).

أما الطبري فيقول: (وقوله: ﴿فَأَمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ يقول: فإن رأيت من بني آدم أحدا يكلمك أو يسألك عن شيء عن أمرك وأمر ولدك وسبب ولادته ﴿فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ يقول: إني أوجبت على نفسي لله صمتا ألا أكلم أحدا من بني آدم اليوم ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾. وبخو الذي قلنا في معنى الصوم، قال أهل التأويل (19).

وقد فسرها الشعراوي بقوله: (وهنا يتولى الحق سبحانه وتعالى الدفاع عن مريم وتبرير موقفها الذي لا تجد له هي مبررا في أعرف الناس، فمن يلتمس عذرا لامرأة تحمل وتلد دون أن يكون لها زوج؟ ومهما قالت فلن تصدق ولن تسلم من السنة القوم وتجريحهم.

إذن: لجواب ما يكره السكوت، فأمرها سبحانه أن تلزم الصمت ولا تجادل أحدا في أمرها: ﴿فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: 26] والصوم هنا أي: عن الكلام، كما حدث مثل هذا في قصة زكريا؛ لأن المعجزات قريبة من بعضها، فقد أعطى الله زكريا مع عطب

الآلات، وأعطى مريم بنقص الآلات، ولا يبرر هذه المعجزات ولا يدافع عنها إلا صانعها تبارك وتعالى.

وهذه المسألة اعترض عليها بعض الذين يحبون أن ينتقموا على القرآن، فقالوا: كيف يأمرها بالصوم عن الكلام، وفي نفس الوقت يأمرها أن تقول: نذرت للرحمن صوماً؟
يجوز أنها قلت هذه العبارة أولاً لأول بشر رآته ليم بذلك إعلان صومها، ثم انقطعت عن الكلام، ويجوز أن يكون المراد بالكلام هنا الإشارة، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمها، فإن اختلفت اللغات بين البشر لأن كل جماعة تواضعوا على لغة خاصة بهم، فإن لغة الإشارة تظل لغة عامة يتفق عليها الجميع، فمثلاً حين تومئ برأسك هكذا تعني نعم في كل اللغات، وحين تُشير بأصبعك هكذا تعني لا، إذن: فالدلالة لغة عالمية وعامة.

وقد تعرّض القرآن الكريم في موضع آخر لهذه المسألة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: 93].

أي: لا يقربون من الفهم، فهم يفهمون من باب أولى، ومع ذلك كان بينهم كلام وإشارة ولغة، وفهم كل منهم عن الآخر: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ [الكهف: 94].

ونلاحظ في قولها: ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْ سِيَّ﴾ [مريم: 26] أن النبي عن الكلام مع البشر خاصة فلم تقل: لن أتكلم، وإلا ففعلها جبريل عليه السلام يكلمها وبينهما تفاهم، لعله يرى لها مخرجاً، وقد كانت مريم واثقة مطمئنة إلى هذا المخرج، فإذا كان ربها تبارك وتعالى أمرها بالصوم عن الكلام، فإنه سينطق الوليد ليتكلم هو ويدافع عن أمه أمام اتهامات القوم⁽²⁰⁾.

وفي تفسير الجزائري ما نصه: ﴿فإما ترين من البشر أحداً﴾ أي فسألك عن حالك أو عن ولدك فلا تكلميه واكتفي بقولك ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي صمتاً ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْ سِيَّ﴾ هذا كله من قول عيسى لها أنطقه الله كرامة لها ليذهب عنها حزنها وألمها النفسي من جراء الولادة وهي بكر لم تتزوج⁽²¹⁾.

إن حمل مريم بنت عمران عليها السلام كان له الوقع الشديد على نفسياتها، وإنجاب الولد لا يكون إلا بوجود علاقة بين رجل وامرأة، وهذا المتعارف عليه بين الناس أجمعين، لذلك تعجبت من حمل بأسباب خارقة للعادة، وخارجة عن المألوف، رغم كلام جبريل إليها وإيصاله رسالة ربه إليها أن الأمر هين على الله جلّت قدرته، وكان الأمر منه سبحانه مقضياً، ولكنها تعلم يقينا أن قومها سينكرون عليها أمرها، بل ويرمونها بالزنا ويقذفونها وهي العفيفة الطاهرة، وأنى لهم تصديق أمر لم يعهدوه من قبل، لذلك تمنّت لو أنها ماتت قبل هذا الأمر وكانت نسياً منسياً، ولكن الله تعالى

الذي جعل حملها آية للناس، أكرمها بآية ثبت عفتها وطهارتها بأن أنطق رضيعها لينوب عليها في الرد على قومها، ويشد أزرها، وليعلم الناس أن الذي أنطق من كان في المهده صبيا هو من قضى أن يكون حمل امرأة من غير رجل، ولا يعجز الله تعالى شيء في الأرض ولا في السماء، وكل شيء عنده بقدر وحكمة منه أرادها وهو على كل شيء قدير، فكان صومها عن الكلام بمعنى الانقطاع عن التحدث إلى قومها ولزوم الصمت.

2.2.3 الرمز:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادُّكُرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41)﴾ (سورة آل عمران، الآية: 41)
وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) نَخْرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)﴾ (سورة مريم، الآيتان: 10 و 11)

إن دعوة زكرياء عليه السلام ربه بأن يهبه غلاما يكون وريثا له ولآل يعقوب وتقر به عينه، فما لبث أن جاءته البشري بغلام اسمه يحيى، فتعجب من ذلك كيف وهو شيخ كبير وامرأته عجوز عاقرة، ولكن الله قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فما كان من زكرياء عليه السلام إلا أن طلب من ربه آية، ليأتيه الرد بأن يلزم الصمت فلا يكلم أي بشر إلا رمزا لمدة ثلاثة أيام، والصمت الذي أمر به إنما عن الكلام مع الناس، مستثنيا في ذلك ذكر الله تعالى وتسيحه بكرة وعشيا.

قال ابن كثير: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة أستدل بها على وجود الولد مني ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ أي: إشارة لا تستطيع النطق، مع أنك سوي صحيح، كما في قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: 10] ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح في هذه الحال، فقال: ﴿وَادُّكُرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (22).

وفي تفسير الطبري ما نصه: (القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ قال أبو جعفر: فعاقبه الله -فيما ذكر لنا- بمسألته الآية، بعد مشافهة الملائكة إياه بالبشارة، فجعل آيته = على تحقيق ما سمع من البشارة من الملائكة يحيى أنه من عند الله آية من نفسه، جمع تعالى ذكره بها العلامة التي سألها ربه على ما بين له حقيقة البشارة أنها من عند الله، وتحيصا له من هفوته، وخطأ قلبه ومسألته. ونحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل) (23).

أما الشعراوي فيقول: (إنه يطلب آية ليعيش في نطاق الشكر، إنه لم يطلب آية لأنه يشك - معاذ الله - في قدرة الله، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة النعمة من أول وجودها إلا ومعها الشكر عليها، والذي يعطينا هذا المعنى هو القول الحق: ﴿قَالَ آيَتِكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾. لا بد أن معناها أنه يرغب في الكلام فلا يستطيع.

إن هناك فارقا بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم، وبين ألا يقدر على الكلام. وما دامت الآية هبة من الله. فالحق هو الذي قال له: سأمنعك من أن تتكلم، فساعة أن تجد نفسك غير قادر على الكلام فاعرف أنها العلامة، وستعرف أن تتكلم مع الناس رمزا، أي بالإشارة، وحتى تعرف أن الآية قادمة من الله، وأن الله علم عن عبده أنه لا يريد أن تمر عليه لحظة مع نعمة الله بدون شكر الله عليها، فإننا نعلم أن الله سينطقه. ﴿وَاذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

لقد أراد زكريا أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكرا، وجعل كل وقته ذكرا، فلم ينشغل بالناس أو بكلام الناس، وذكر الرب كثيرا هو ما علمه - سبحانه - عن زكريا عندما طلب الآية ليصحبها دائما بشكر الله عليها، إن قوله: {وَاذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا} تفيد أن زكريا قادر على الذكر وغير قادر على كلام الناس، لذلك لا يريد الله أن يشغله بكلام الناس، وكأن الله يريد أن يقول له: ما دمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرا فسأجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قادر على الذكر⁽²⁴⁾.

وأما أبو بكر الجزائري فقد جاء في تفسيره: (﴿آيَتِكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ يريد أنك تصبح وأنت عاجز عن الكلام لمدة ثلاثة أيام، فلا تقدر أن تخاطب أحداً إلا بالإشارة وهي الرمز فيفهم عنك، وأمره تعالى أن يقابل هذا الإنعام بالشكر التام فقال له: ﴿وَاذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ﴾ يريد صلِّ بالعشي آخر النهار والإبكار أوله⁽²⁵⁾.

3.2.3 القنوت:

قال ابن منظور: (قنت: القنوت: الإمساك عن الكلام، وقيل: الدعاء في الصلاة. والقنوت: الخشوع والإقرار بالعبودية، والقيام بالطاعة التي ليس معها معصية؛ وقيل: القيام، وزعم ثعلب أنه الأصل؛ وقيل: إطالة القيام. وفي التنزيل العزيز: وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ. قال زيد بن أرقم: كَمَا تَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى نَزَلَتْ: وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ، فَأَمْرُنَا بِالسُّكُوتِ، وَنَهْيُنَا عَنِ الْكَلَامِ، فَأَمْسَكْنَا عَنِ الْكَلَامِ؛ فَالْقُنُوتُ هَاهُنَا: الْإِمْسَاكُ عَنِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ)⁽²⁶⁾.

قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (238) ﴿سورة البقرة، الآية: 238﴾

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ (26) ﴿سورة الروم، الآية: 26﴾

يقول محمد علي السائس: (وقوموا لله قانتين قال ابن عباس: القنوت الطاعة، وقال ابن عمر: هو القيام، واستدل عليه بقوله صلى الله عليه وسلم: "أفضل الصلاة طول القنوت". قال مجاهد: إنه السكوت. وفي "الصحيح" قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت هذه الآية وقوموا لله قانتين فأمرنا بالسكوت. وقيل: هو الخشوع، والصحيح ما قاله مجاهد، بدليل ما رواه زيد، ويبعد جدا أن يراد به القيام هنا لأنه لا يصح (وقوموا لله قانتين). وإذا كان المراد بالقنوت السكوت هنا كانت الآية أمره بالسكوت في الصلاة، وقد ذكرت المالكية أن من تكلم في الصلاة، إما أن يكون ساهيا أو عامدا، والعامد: إما أن يتكلم لإصلاحها، أو عبثا، وقالوا: إن من تكلم ساهيا لا تبطل صلاته، لأن السهو لا يدخل تحت التكليف، ومن تكلم لإصلاحها لا تبطل صلاته خلافا للشافعية والحنابلة) (27).

وقد فصل الأصفهاني في تفسير القنوت في الصلاة بمعنى التزام الصمت أثناء تأديتها إلا قول مشروع كقراءة القرآن والذكر والتسبيح والدعاء، يقول في ذلك: (قوله تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ [البقرة: 238]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم/26]، قيل: خاضعون، وقيل: طائعون، وقيل: ساكتون ولم يعن به كل السكوت، وإنما عني به ما قال عليه الصلاة والسلام: "إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الأدميين، إنما هي قرآن وتسبيح"، وعلى هذا قيل: أي الصلاة أفضل؟ فقال: "طول القنوت" أي: الاشتغال بالعبادة ورفض كل ما سواه) (28).

4.2.3 الكظم:

جاء في "لسان العرب" ما نصه: (والكُظُم: السُّكُوت. وَقَوْمٌ كُظِمُوا أَي سَاكِنُونَ؛ قَالَ الْعَجَّاجُ:

وَرَبِّ أَسْرَابٍ حَجِيجٍ كُظِمَ
عَنِ اللَّغَا وَرَفَثِ التَّكَلُّمِ
وَقَدْ كُظِمَ وَكُظِمَ عَلَى غَيْظِهِ يَكُظِمُ كُظْمًا، فَهُوَ كَاظِمٌ وَكُظِيمٌ: سَكَتَ. وَفُلَانٌ لَا يَكُظِمُ عَلَى جَرَّتِهِ أَي لَا يَسْكُتُ عَلَى مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَتَكَلَّمَ بِهِ؛ وَقَوْلُ زِيَادِ بْنِ عُبَيْدِ الْهَدَلِيِّ:
كُظِمَ الْحَجَلُ وَاضِحَةً الْحَيَا
عَدِيلَةَ حُسْنِ خَلْقٍ فِي تَمَامِ
عَنِ أَنْ خَلَخَالَهَا لَا يُسْمَعُ لَهُ صَوْتُ لَامِتْلَائِهِ) (29).

أما معنى الكظم في "القاموس المحيط" فجاء على نحو: (كَظَمَ غَيْظَهُ يَكْظِمُهُ: رَدَّهُ، وَحَبَسَهُ... وَكُظِمَ، كَعْنِي. كُظُومًا: سَكَتَ. وَقَوْمٌ كُظِمٌ، كَرَّجَجٌ: سَاكِتُونَ) (30).

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَن يَصِرْهُوَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136)﴾ (سورة آل عمران، الآيات: 133-136)

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنَّ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50)﴾ (سورة القلم، الآيات: 48-50)

يقول الأصفهاني: (الْكُظْمُ: مَخْرَجُ النَّفْسِ، يُقَالُ: أَخَذَ بِكُظْمِهِ، وَالْكُظُومُ: احْتِبَاسُ النَّفْسِ، وَيَعْبَرُ بِهِ عَنِ السَّكُوتِ كَقَوْلِهِمْ: فَلَانٌ لَا يَتَنَفَّسُ: إِذَا وَصِفَ بِالْمُبَالَغَةِ فِي السَّكُوتِ، وَكُظِمَ فَلَانٌ: حَبَسَ نَفْسَهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم/ 48]، وَكُظِمَ الْغَيْظُ: حَبَسَهُ، قَالَ: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران/ 134] (31).

وأما في كتاب "بصائر ذي التمييز" فقد ورد ما نصه: (كَظَمَ غَيْظَهُ يَكْظِمُهُ كُظْمًا: رَدَّهُ وَحَبَسَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾. وَكُظِمَ الْبَابُ: أَغْلَقَهُ. وَكُظِمَ النَّهْرُ: سَدَّهُ. وَرَجُلٌ كُظِمٌ وَمَكْظُومٌ: مَكْرُوبٌ. وَالْكَظْمُ - بِالطَّحْرِيكِ - الْحَلْقُ، وَالْفَمُّ، وَمَخْرَجُ النَّفْسِ. وَالْكُظُومُ السَّكُوتُ. وَكُظِمَ فَلَانٌ: حَبَسَ نَفْسَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (32).

5.2.3 الإِبْلَاسُ:

جاء في "لسان العرب": (أَبْلَسَ: سَكَتَ) (33).

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44)﴾ (سورة الأنعام، الآية: 44)

والإِبْلَاسُ هو الصمت الذي يلازم الكفرة حال تجلي الحقيقة أمام أعينهم، يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا جاه، فأى كلام يجديهم يوم يرون العذاب قبلا، ألا ساء ما كانوا يحكمون، قال الطبري في تفسيره: (وأصل "الإِبْلَاسُ" في كلام العرب، عند بعضهم: الحزن على الشيء والندم عليه = وعند بعضهم: انقطاع الحجّة، والسكوت عند انقطاع الحجّة) (34).

أما الأصفهاني فقد قال: (ولمّا كان الملبس كثيراً ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه قيل: أبلِس فلان: إذا سكت وإذا انقطعت حجته) (35).

3.3 من حيث المعنى: ونقصد به كل ما دل على معنى الصمت مما يفهم من السياق.

1.3.3 الإنصات:

جاء في "لسان العرب": (نصت: نصت الرجل ينصت نصتاً، وأنصت، وهي أعلى، وانتصت: سكت؛ وقال الطرمّاح في الإنصات:

يُخَافَتُنْ بَعْضَ الْمَضْغِ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى وَيُنْصِتُنْ لِلسَّمْعِ انْتِصَاتِ الْقِنَاقِنِ
يُنْصِتُنْ لِلسَّمْعِ أَي يَسْكُتُنْ لِكَي يَسْمَعَنَّ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾؛ قَالَ ثَعْلَبٌ: مَعْنَاهُ إِذَا قَرَأَ الْإِمَامُ، فَاسْتَمِعُوا إِلَى قِرَاءَتِهِ، وَلَا تُتَكَلَّمُوا.
وَالنُّصْتَةُ: الْأِسْمُ مِنَ الْإِنْصَاتِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ عَثْمَانَ لِأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَكَ عَلِيٌّ حَقُّ
النُّصْتَةِ.

وَأَنْصَتَهُ وَأَنْصَتَ لَهُ: مِثْلُ نَصَحَهُ وَنَصَحَ لَهُ، وَأَنْصَتُهُ وَنَصَتَ لَهُ: مِثْلُ نَصَحْتَهُ وَنَصَحْتُ لَهُ. وَالْإِنْصَاتُ: هُوَ السُّكُوتُ وَالِاسْتِمَاعُ لِلْحَدِيثِ؛ يَقُولُ: أَنْصَتُهُ وَأَنْصَتُوا لَهُ... أَنْصَتَ يَنْصِتُ إِنْصَاتًا إِذَا سَكَتَ سُكُوتَ مُسْتَمِعٍ؛ وَقَدْ أَنْصَتَ وَأَنْصَتَهُ إِذَا أَسَكَتَهُ، فَهُوَ لَا زِمٌ وَمُتَعَدٌّ (36).

وفي "القاموس المحيط": (نصت ينصت، وأنصت وانتصت: سكت، والأسم: النصتة، بالضم. وأنصتته، - له: سكت له)، واستمع لحديثه. وأنصتته: أسكتته (37).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (204) ﴿سورة الأعراف، الآية: 204﴾

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (29) ﴿سورة الأحقاف، الآية: 29﴾

قال محمد علي السائس عن الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن: (قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي إذا قرأ أي قارئ غيركم فاستمعوا له سماع تدير وتذكر. واللام في قوله "له" قيل: إنها لام الأجل، وقيل: إنها صلة، والمعنى فاستمعوه، وقيل: إنها بمعنى (إلى)، والإنصات السكوت، يقال: نصت وأنصت إذا سكت، ولعلكم تُرْحَمُونَ أي لكي تفوزوا بالرحمة التي هي أقصى ما تبتغون.

وقد وردت الآية هكذا عامة في وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل الأحوال، وعلى جميع الأوضاع خارج الصلاة وداخلها، كل ذلك يجب فيه الاستماع والإنصات للقرآن الكريم إذا قرئ⁽³⁸⁾.

الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن الكريم من باب التدبر والتفكير في آياته، وتعظيمه إذ لا يعلو عليه أي كلام، وذاك مدعاة للرحمة.

2.3.3 الأمر بعدم الإكثار من التساؤل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ سَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (102)﴾ (سورة المائدة، الآيتان: 101 و 102)

لقد أمر الله تعالى المؤمنين بعدم السؤال عن أمور سكت عنها المشرع لحكمة، وبين لهم أن سؤلهم عنها إنما هو من باب أن تفرض عليهم تشريعات بسبب تساؤلاتهم تلك، ومن ثم تشق عليهم فيما بعد، ولكن رحمة الله بهم أن جعل لهم الدين يسرا وما جعل عليهم في تشريعاته من حرج، هذا من باب التزام الصمت حال التشريع، ومن جهة أخرى ذم الكلام ووجوب الصمت عن أسئلة يراد منها امتحان الرسول صلى الله عليه وسلم، ففي إبداء أجوبتها إخراج للسائل وليس إخراج للمسؤول، فتأييد الرسول صلى الله عليه وسلم من الله تعالى ثابت نقلا وعقلا، وإنما الدعوة إلى تجنب الأسئلة جاء لأمرين: أولهما التأديب لأولئك الذين يسألون عن كل ما بدا لهم، وكانهم يستعجلون أمور دينهم ودنياهم، وثانيهما منفعة الخلق وعدم تكلفهم لأمر سكت الله تعالى عن ذكرها لحكمة منه جل وعلا تخفيفا ورحمة بالمؤمنين.

ورد في تفسير ابن كثير ما نصه: (هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ [تَعَالَى] لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَهْيٌ لَهُمْ عَنْ أَنْ يَسْأَلُوا {عَنْ أَشْيَاءٍ} مِمَّا لَا فَائِدَةَ لَهُمْ فِي السُّؤَالِ وَالتَّنْقِيبِ عَنْهَا؛ لِأَنَّهَا إِنْ أُظْهِرَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْأُمُورُ رُبَّمَا سَاءَتْهُمْ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ سَمَاعُهَا)⁽³⁹⁾.

أما الطبري فيقول في تفسيره: (قال أبو جعفر: ذكر أن هذه الآية أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب مسائل كان يسألها إياه أقوام، امتحاناً له أحياناً، واستهزاءً أحياناً. فيقول له بعضهم: "من أبي؟" ويقول له بعضهم إذا ضلت ناقته: "أين ناقتي؟" فقال لهم تعالى ذكره: لا تسألوا عن أشياء من ذلك = كمسألة عبد الله بن حذافة إياه من أبوه، "إن تبد لكم تسؤكم"، يقول: إن أبدينا لكم حقيقة ما تسألون عنه، ساء كم إبدائها وإظهارها... حدثنا أبو كريب قال، حدثنا حفص بن بغيل قال، حدثنا زهير بن معاوية قال، حدثنا أبو الجويرية قال: قال ابن عباس لأعرابي من بني سليم:

هل تدري فيما أنزلت هذه الآية: "يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤمكم"؟ = حتى فرغ من الآية، فقال: كان قوم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء، فيقول الرجل: "من أبي؟" = والرجل تضل ناقته فيقول: "أين ناقتي؟" فأنزل الله فيهم هذه الآية. (وهذا الخبر رواه البخاري في صحيحه) ((40)).

يقول الشعراوي: (وهذا نهي عن السؤال، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "ذروني ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه" ... لقد أراد الحق أن يخفف من أسئلة الناس في الأمور التي تؤدي بهم إلى المشقة والتعب وتسيء إليهم وتقبل الحق من رسوله أسئلة المؤمنين عن القواعد الشرعية مثل سؤالهم عن انجر والأهله والحيض والشهر الحرام وغيرها. أما الأسئلة الأخرى فقد قال الحق في شأنها: ﴿عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ذلك أن البعض استمرأ السؤال وكأنه يمتحن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولذلك جاء الأمر بالألا يعتمد المؤمنون السؤال عما ستره الله عنهم كي لا يفضح عرضهم. ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ﴾ فإن نزل القرآن وهو يحمل الإجابة كان بها. وإن لم تأت الإجابة فلا يقولن أحد: إن النبي ليس عنده جواب. أو هي سؤال عن الأشياء التي اقترحوها ادعاء منهم أنها ثبت صدق النبوة... فالرسول لن يأتي بالآيات، بل تأتيه الآيات بالأمر المكلف به؛ لأن الرسول لا يختار ما يؤتى به من آيات، ولكن الحق هو الذي يرسل الآيات المناسبة) ((41)).

وقريب مما سبق يقول أبو بكر الجزائري: (لقد أكثر بعض الصحابة من سؤال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تضايق منهم فقام خطيباً فيهم وقال: "لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم". فقام رجل يدعى عبد الله بن حذافة كان إذا تلامى مع رجل دعاه إلى غير أبيه فقال من أبي يا رسول الله؟ فقال: أبوك حذافة، وقال أبو هريرة: خطبنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا ولو قلت نعم، لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم" فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تَبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾، أي تظهر لكم جواباً لسؤالكم يحصل لكم بها ما يسؤمكم ويضركم، ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّ لَكُمْ﴾ أي يبينها رسولنا لكم. أما أن تسألوا عنها قبل نزول القرآن بها فذلك مالا ينبغي لكم لأنه من باب إحفاء رسول الله وأذيته، ثم قال تعالى لهم: ﴿عَفَا اللهُ عَنْهَا﴾ أي لم يؤاخذكم بما سألتكم ﴿وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، فتوبوا إليه يتب عليكم واستغفروه يغفر لكم ويرحمكم فإنه غفور رحيم) ((42)).

ومنه فالنهي عن السؤال في عهد النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور لم تكن مشروعة وقتها خاص به صلى الله عليه وسلم، وعليه من باب أولى الصمت عنه لثلا يظهر جواباً يحصل به ما يسوء ويضر، أما السؤال الاستفساري بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور الدين فواجب من باب التفقه والتعلم.

3.3.3 رد اليد في الفم إيماء بالصمت:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)﴾ (سورة إبراهيم، الآية: 9)

إن من أشكال الصمت المذموم ما وصف الله تعالى به أقواما كذبوا بالرسول ورسالاتهم، مدّعين في ذلك عدم تقبلهم لما أنزل الله تعالى، فكانوا يردون أيديهم في أفواههم كدلالة على تكذيبهم وتعنتهم، وفعلهم ذلك على وجهين، إما أنهم أغلقوا أفواههم ملتزمين الصمت كعنوان على كفرهم، وإما أنهم أغلقوا أفواه المرسلين حتى لا يسمعوا ما أمروا بتبليغه من رسالات ربهم، فباؤوا بفعلهم ذلك بغضب من الله تعالى، ومنه فسكوتهم أو إسكاتهم لغيرهم من باب الصدّ عن أمر الله تعالى الموجب للعقاب، «وقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قيل: عَضُوا الْأَنَامِلَ غِيظًا، وقيل: أَوْمَأُوا إِلَى السَّكُوتِ، فَأَشَارُوا بِالْيَدِ إِلَى الْفَمِ، وقيل: رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِ الْأَنْبِيَاءِ فَأَسَكْتُوهُمْ. واستعمال الردّ في ذلك تنبيه أنهم فعلوا ذلك مرّة بعد مرّة أخرى»⁽⁴³⁾.

4. خاتمة:

الصمت أسلم بصاحبه؛ لأنه مخالفة للنفس التي تؤثر شهوة الكلام؛ والخوض في كل الأمور، فمن حفظ لسانه أراح نفسه من زيغ النطق، ومما وجب السكوت عنه كل كلام غير صائب؛ أو ما يعرف بأفات اللسان.

وقد ورد لفظ "الصمت" في القرآن الكريم بلفظه وبما يدل عليه على سبيل التصريح والتلبيح، وتراوحت تلك المعاني بين وجوب الالتزام به إذا كانت الضرورة تمليه، أو ذمه حين يكون الكلام منه أولى، وعليه فالصمت بين منزلتين بحسب ما توجبه الضرورة ويقتضيه المقام، وعلى كل إنسان أن يتحرى مواطن الكلام وكذا الصمت كي يسلم من العواقب، وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم إلاّ حصائد ألسنتهم؟

الهوامش:

- ¹ ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفي الإفريقي): لسان العرب (مذيبل بجواشي اليازجي وجماعة من اللغويين)، دار صادر، ط 3، بيروت، 1414هـ، ص: 54، وما بعدها.
- ² الفيروز آبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب): القاموس المحيط، ج 1، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 8، بيروت، لبنان، 1426هـ، 2005م، ص: 157، وما بعدها.
- ³ ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثاني، ص: 43، وما بعدها.
- ⁴ عبد الباري محمد داود: اللسان ميزان بين الصمت والكلام، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، القاهرة، 2001م، ص: 145، 147.
- ⁵ المرجع نفسه، ص: 128.
- ⁶ أبو البقاء الكفوي: الكليات، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط 2، بيروت، لبنان، 1419هـ، 1998م، ص: 509.
- ⁷ ابن عابدين (محمد أمين): رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، ط 2، بيروت، لبنان، 1424هـ، 2003م، ص: 441.
- ⁸ ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي): تفسير القرآن العظيم، ج 3، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420هـ، 1999م، ص: 529.
- ⁹ الطبري (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر): جامع البيان في تأويل القرآن، ج 13، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420هـ، 2000م، ص: 320، وما بعدها.
- ¹⁰ محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - الخواطر، ج 8، مطابع أخبار اليوم، د. ط، 1997م، ص: 4522.
- ¹¹ أبو بكر الجزائري (جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر): أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 2، مكتبة العلوم والحكم، ط 5، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1424هـ، 2003م، ص: 274.
- ¹² ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج 3، ص: 478.
- ¹³ الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج 13، ص: 137.
- ¹⁴ محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - الخواطر، ج 7، ص: 4370، وما بعدها.
- ¹⁵ أبو بكر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 2، ص: 242.
- ¹⁶ ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثاني عشر، ص: 350.
- ¹⁷ الفيروزي آبادي: القاموس المحيط، ص: 1131.
- ¹⁸ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج 5، ص: 225، وما بعدها.
- ¹⁹ الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج 18، ص: 182.

- 20 محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - الخواطر، ج 15، ص: 9070 - 9072.
- 21 أبو بكر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 3، ص: 302.
- 22 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص: 39.
- 23 الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج 6، ص: 385، وما بعدها.
- 24 محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - الخواطر، ج 3، ص: 1448، وما بعدها.
- 25 أبو بكر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 1، ص: 314.
- 26 ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثاني، ص: 73.
- 27 محمد علي السائيس: تفسير آيات الأحكام، ص: 171.
- 28 الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد): المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، ط 1، دمشق، بيروت، 1412 هـ، ص: 685.
- 29 ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثاني عشر، ص: 520.
- 30 الفيروزي آبادي: القاموس المحيط، ص: 1155.
- 31 الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص: 712.
- 32 الفيروز آبادي (محمد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج 4، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، د. ط، القاهرة، 1412 هـ، 1992 م، ص: 357.
- 33 ابن منظور: لسان العرب، المجلد السادس، ص: 29.
- 34 الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج 11، ص: 362.
- 35 الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص: 143.
- 36 ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثاني، ص: 98، وما بعدها.
- 37 الفيروزي آبادي: القاموس المحيط، ص: 161، وما بعدها.
- 38 محمد علي السائيس: تفسير آيات الأحكام، ص: 420.
- 39 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج 3، ص: 203.
- 40 انظر، الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج 11، ص: 98.
- 41 محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - الخواطر، ج 6، ص: 3423، وما بعدها.
- 42 أبو بكر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 2، ص: 20.
- 43 الفيروز آبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج 3، ص: 59، وما بعدها، والراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص: 349.

قائمة المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.

- (1) ابن عابدين (محمد أمين): رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، ط 2، بيروت، لبنان، 1424هـ، 2003م.
- (2) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420هـ، 1999م.
- (3) ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي): لسان العرب (مذيل بحواشي اليازجي وجماعة من اللغويين)، دار صادر، ط 3، بيروت، 1414هـ.
- (4) أبو البقاء الكفوي: الكليات، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط 2، بيروت، لبنان، 1419هـ، 1998م.
- (5) أبو بكر الجزائري (جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر): أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، ط 5، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1424هـ، 2003م.
- (6) الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد): المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، ط 1، دمشق، بيروت، 1412هـ.
- (7) الطبري (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر): جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420هـ، 2000م.
- (8) عبد الباري محمد داود: اللسان ميزان بين الصمت والكلام، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، القاهرة، 2001م.
- (9) الفيروز آبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، د. ط، القاهرة، (ج 1، 2، 3): 1416هـ، 1996م، (ج 4، 5): 1412هـ، 1992م، (ج 6): 1393هـ، 1973م.

- (10) الفيروز آبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب): القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 8، بيروت، لبنان، 1426هـ، 2005م.
- (11) محمد علي السائس: تفسير آيات الأحكام، تحقيق: ناجي سويدان، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، د. ط، 2002م.
- (12) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - الخواطر، مطابع أخبار اليوم، د. ط، 1997م.